

يوم فجد حياة

صياد اللؤلؤ

د. محمد وليد*

قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ [الأنعام : ٧٦]

صدق الله العظيم

هذه قصة صياد يبحث عن سيده الملك.

يقص ذات ليلة بأنه رأى الملك

يسير في العباب

أقدامه في البحر مستريحة

ورأسه فوق السحاب

وأخر يقول إنه رأى جناحه..

وأنه يطير..

وإنه يعيش عند قصره الكبير..

وأنه ذو قوة عجيبة تسير في الأثير

فتارة تراه كالنسر

وتارة يسابق الرياح في الهجير

ومرّ دهرٌ أجذبت فيه القلوب والبحار..

فلا ترى الأسماك في مياهها ولا المحار..

وأرهنّ الصياد بالصداع والدوار..

شباكه تجيء بالقشور والطحالب..

والجوع ينهش الأطفال بالمخالب

ودارت الأيام بالنوائب..

وراح يرسلُ الرجاء للملك

يا جابر القلوب في دُجّة الحلك..

أرسل لنا أرزاقنا..

فالنسل قد هلك

على هدير الموج عند شاطئ الرمال

حيث الغروب والنخيل لوحه..

تعانق الأضواء والظلال..

يعيش صياد يصارع المحال

يغالب الأمواج والأوهام والخيال

وكلّ يوم كان - أوّل النهار -

يودع الزوجة والأحبة الصغار

وينشر القلوع في البحار..

ثم يغوص في مجاهل المحيط للقرار..

فتارة يجيء بالحصى..

وتارة يجيء بالمحار.

فيحمل الصياد رزقه

في آخر النهار

ويشكر المليك

خالق المحار في البحار

وما رأى الصياد يوماً طلعة الملك..

لكن أصدقاؤه

قالوا بأن صولجانه مرصع بأجل اللال

وإن تاجه يُشعّ بالبهاء والجمال

وراح صياد عجوز كيّس الإهاب

(*) طبيب وشاعر سوري، له ديوان «أشواق الغرباء»، يعمل الآن أستاذاً لطب العيون في جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

وأرسل الشباك بين الخوف والرجاء..

إذا بحوت هائم يسبح في مضاء ..

فاصطاده الصياد من دون عناء

وذاق أهله..

ذاك المساء..

طعم القرى..

وباع واشترى..

وثارت الأشواق في فؤاده

لكي يرى ملكه الجليل

يريد أن يراه كي يقرّ قلبه العليل

وسار في طريقه..

وقلبه إلى ملكه دليل..

وفي الطريق شاهد الصياد قصراً شاخاً كبير

يسكنه فتى أمير..

فراح يرقب البروج والفؤاد في وجبه أسير

وعندما دعاه للحضور..

وأبصر الإيوان والتيجان

والرياش والبخور..

قال مولاي المليك يا مكرم الأنام..

عليك أجمل السلام!!

أجابة الأمير..

في أدب جم كبير..

لست أنا المليك سيدي

وما أنا بذرة في لوحه

أو نقطة في قلمه..

لكنني شرفت أن أكون واحداً من خدمه

وإن أردت أن تراه..

تابع الطريق باتجاه قصره..

مجاهداً بالجسم والنفس..

فقصره على الطريق..

باتجاه مشرق الشمس..

وفي الطريق شاهد الصياد فارساً

يسابق الرياح في الهجير..

حصانه مطهم

وثوبه حريز..

وسيفه مرصع

ملاًلؤلؤ بالنور..

فقال: مولاي المليك يا مسابق الأنام

عليك أجمل السلام

أجاب فارس الهجير..

في أدب جم كبير..

لست أنا المليك سيدي

وما أنا هباءة في مجده..

لكنني شرفت أن أكون واحداً من جنده

وإن أردت أن تراه تابع الطريق نحو قصره..

مغالباً هواجس النفس

فقصره على الطريق..

باتجاه مشرق الشمس..

وفي طريقه

والشمس في الظهيرة..

رأى فتاة حلوة..

كانها أميرة..

وخلفها وصيفة..

كالوردة النضيرة..

فقال مولاي عليك أجمل السلام

يا حليلة المليك يا أميرة..

أجاب الفتاة في ابتسامة خفية..

ما للمليك زوجة يا سيدي..

وما له عشيرة.

ونحن في بستانه

نقطفُ من إحسانِهِ ..

حياتنا سحابة صيفية ..

وقصة مُثيرة ..

ميلادنا يقودنا لِلْحَدِثِ

في رحلة، قصيرة ..

إذا أردت أن تراه تابع المسيرة ..

مغالباً هواجسَ النَّفْسِ ..

فقصره على الطريق

باتجاه مشرقِ الشَّمْسِ ..

ومر في طريقه ..

والشمسُ في عرس الأصيل ..

بعابيد جليل

ذي سحنة وضاءة

ولحية بيضاء ..

وروحه معلق بربه

وقلبه العليل ..

فقال أيها المليكُ يا مُعلِّمَ الأنام ..

عليك أجملُ السلام

أجابه المعلم الأثير ..

في أدب جَمِّ كبير ..

لستُ أنا المليكُ سيدي ..

وما قَضَيْتُ حقَّ شُكْرِهِ على نعمائه ..

لكنني أقلبُ الأبصارَ في آلائهِ ..

وإن أردت أن تراه تابع الطريق باتجاه نوره ..

مغالباً مصاعب الدرب

فنوره على الطريق ..

بين العقل والقلب ..

أجابه الصيَّادُ في ذلِّ وفي انكسار ..

الشمسُ في وقتِ المغيبِ آخرَ النهار

وبعد حينٍ سيدي يُلْفَنِي الظَّلامُ ..

وتبرزُ الوحشةُ والأوهامُ ..

وإنني أخشى الظلامَ خشيةَ النوائِبِ ..

وساوسي تدبُّ فيه كالعقارب ..

وتقذفُ الأرواحَ في وادٍ سحيق ..

وتختفي معالمُ الطريق ..

فقال لا تحشَّ الدُّجَى .. يا سالِكَ الدَّرَبِ ..

فالنورُ بينَ الروح والقلب ..

أنظر له .. تراه في إشراقِ الحُبِّ ..

ما للمليكِ يا بُنَيَّ صولجان ..

وليس شيئاً مثله .. تراه في الأكوانِ

إن المليكَ يا بُنَيَّ نور ..

مِلءُ البطاحِ نُورُهُ ..

مِلءُ السمواتِ ..

ونوره في البدء كان ..

ولم يزل ..

ويكونُ في الآتي ..

أحبه في هدأة الليل .. وفي إشراقِ الشمسِ ..

أحبه في بسمَةِ الطفلِ .. وفي أنشودةِ العُرسِ

أحبه في حكمةِ العقلِ وفي التفكيرِ والحسِّ ..

أحبه .. في آيةِ الكرسي ..

وإن أردت يا بُنَيَّ وَصْلَهُ ..

فتابع الطريق باتجاه حُبِّهِ ..

مجاهداً بالجسم والنفس ..

وإن مشيتَ للحبيب باعاً ..

مَشَى إِلَيْكَ حُبُّهُ ذراعاً ..

وعشتَ بين الوصلِ والأنسِ ..

الشاعرة عليّة الجعار

الشعر عندها حياة.. وإبداعها إضافة رائعة للأدب الإسلامي المعاصر.. هذه هي الشاعرة اللامعة عليّة الجعار، التي يؤرق فكرها ويفزع وجدانها - على حد قولها - قهراً المسلمين في كل مكان من عالمنا.
حول عدد من قضايا حياتنا الثقافية، فضلاً عن تجربتها الإبداعية كان «لمجلة الأدب الإسلامي» مع شاعرتنا هذا الحوار:

داورها: عنتر مخيم

● كيف ترين خصائص الأدب الإسلامي؟

- يتميز الأدب الإسلامي بأنه إبداع أخاذ، يخاطب الروح والوجدان.. هو أدب يتناول قضايا الإنسان بقاء وصدق... يسمو بالنفس... كما أنه يتميز بتأصيل الأحداث، بتأصيل المعنى أو الفكرة وتعميقها.. هو أولاً وأخيراً يستوعب الحياة والإنسان مستضيئاً بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والسيرة العطرة.

● ما هي أبرز أعمالك التي تمثل فيها خصائص الأدب الإسلامي؟

عندما تهب لحظة الشعر أفرغ لها، ولا تأخذني منها غير هوائنا الصيريّة.

- شعري الإسلامي.. شعر وجداني.. ويمكن أن نطلق عليه اسم الشعر الوجداني الثقفي.

ومن أعمالي في الشعر الإسلامي ديوان «ابنة الإسلام»، ثم ديوان «على أعتاب الرضا».. كذلك ألقت عدة تمثيلات إسلامية كان هدفها التعريف بتاريخ المرأة المسلمة على امتداد التاريخ الإسلامي.

● كيف يزدهر الأدب الإسلامي ويصبح أوسع انتشاراً؟

- الإعلام - وهذه حقيقة مرة - أهم معوقات انتشار الأدب الإسلامي وازدهاره فمن المؤسف أن الأدب الإسلامي لا ينال الاهتمام المرجو من أجهزة الثقافة والإعلام في بلادنا.. ومن ثم توجد فجوة بين الأدب الإسلامي وبين القراءة صلة واهية. لا بد من علاقة وثيقة بين الأديب والمتلقي.. وبصراحة.. الصلة بين الأدب والقارىء، وهنا أشير إلى أهمية تنظيم اللقاءات والندوات والمؤتمرات الثقافية... ومن أهم سبل انتشار الأدب الإسلامي دعم كتب الإبداع الأدبي الإسلامي..

● كيف تبدعين.. وما هي أهم القضايا التي تشغل فكرك ووجدانك؟

- أنا مثل أي شاعر.. حينما يأتيه الإلهام الشعري في أي وقت.. لا بد أن أفرغ له وأنصرف إليه بفكري ووجداني.. وأنا حالياً لا يشغلني شيء غير القضايا الإسلامية، التي نعيشها، وتنوء بها الضمائر الحرة، وكم يؤرق فكري ويفزع وجداني قهراً المسلمين في كل مكان من عالمنا.

● والشعر في مفهوم الشاعرة عليّة الجعار؟

- الشعر عندي حياة.. الشعر إبداع فني عن الحياة والكون والإنسان.. إبداع من أعماق المشاعر الإنسانية.. الشعر هو الفن الرفيع... وهو هبة من الله سبحانه وتعالى..

● بمن تأثرت الشاعرة عليّة الجعار؟

- تأثرت منذ الطفولة بوالدي.. لقد حرص على تعليمي القرآن الكريم حفظاً وتلاوة في وقت مبكر، وبفضل حفظ القرآن الكريم تستقيم الملكة اللغوية.

وتأثرت بالمتنبي وحسان بن ثابت والبيهاء زهير..

● في رأيك.. ما المقصود بالأدب الإسلامي؟

- الأدب الإسلامي لا يعني - كما يتصور بعضهم - مجرد الوعظ والإرشاد والخطب التي تحت على الفضائل والمبادئ الإسلامية.. الأدب الإسلامي إبداع فني يرتبط بالقيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية.. هو أدب يخاطب الوجدان من خلال رؤية إسلامية. وكما نعرف.. الأدب الإسلامي ليس اتجاهًا جديدًا في أدبنا العربي، فلقد بدأت مسيرته منذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم شاعره المبدع حسان بن ثابت بأن يرد على هجاء الكافرين والمشركين. وكان في بدايته هجاء للكافرين، وتسجيلاً لغزوات المسلمين ومدحاً للأبطال والشهداء.

وامتد الشعر الإسلامي بعد ذلك ولم تنقطع مسيرته حتى العصر الحديث.

● كيف ترين الحداثة الشعرية والاتجاهات الجديدة في الشعر؟

- دعني أسألك أولاً.. ما الحداثة؟.. إذا كانت الحداثة هي مواكبة العصر فما أكثر شعراء الحداثة في أدبنا العربي على مر العصور.

قديماً قال الشاعر:

السيف أصدق أنباء من الكتب
أليست هذه حداثة؟

الحداثة هي أن يكتب الأديب بلغة العصر الحديث وعنه، بشرط أن يتمسك بجذوره.. بترائه.. أما أن نقطع هذه الجذور ونقول إن هذه هي الحداثة فهذا هو الضلال بعينه!

ومن ناحية أخرى الحداثة لا تعني استلهام قيم وأفكار وأخلاقيات - من شعوب وثقافات أخرى - لا تتفق وواقع حياتنا وقيمنا الإسلامية.

● يقول بعض الشعراء الجدد إن قصيدة النشر أقدر على التعبير عن حياتنا الراهنة من القصيدة الإيقاعية الجامدة.. ما رأيك؟

قصيدة النشر شيء والشعر شيء آخر.. وقصيدة النشر تعني أن صاحبها عاجز عن إبداع الشعر. كذلك فلننظر إلى تاريخنا الشعري كله.. هل عجز شاعر مبدع.. شاعر موهوب عن التعبير عن الأفكار والمعاني التي يريدونها في قالب جميل رائع؟

إن من يستمع إلى العبارات والكلمات التي يسمونها قصيدة النشر... لا يفعل بها كما يفعل بالشعر لأنها لا تثير في وجدانه ما يثيره الشعر الحقيقي.. فلنسّم الأشياء بأسمائها.. الشعر.. شعر.. والنثر.. نثر!

● الشاعرات المسلمات في ميزان الشاعرة عليّة الجعاري.

- في الساحة الأدبية شاعرات مسلمات على قدر كبير من البراعة.. موهوبات حقاً.. منهن في مصر جليّة رضا، نجاة شاور، نور نافع، شريفة فتحي، وخارج مصر.. سعدت بعودة نازك الملائكة إلى الشعر العمودي مرة أخرى؟؟

وبالتأكيد توجد أسماء أخرى خارج مصر، ولكن بسبب عدم التواصل الأدبي بين الشاعرات في البلاد الإسلامية لا نعرفهن هنا في مصر.. وليت رابطة الأدب الإسلامي العالمية تقوم بهذا التعريف.

● أخيراً.. كيف ترين مستقبل الأدب الإسلامي؟

- مستقبل مشرق إن شاء الله.. وأنا سعيدة جداً برابطة الأدب الإسلامي العالمية، حيث اعتبرها القلعة الشاخنة للأدباء المسلمين في شتى بلاد العالم الإسلامي... وكم كانت سعادتي بالغة حينما قرأت ديوان البوسنة والهرسك الذي أصدرته الرابطة، ورصدت ريعه للشعب المسلم في البوسنة والهرسك.

مطلوب طبعات شعبية جيدة الطباعة، زهيدة الثمن.. وهذه مسؤولية دور النشر الإسلامية بالإضافة إلى مؤسسات النشر الحكومية.. كما يمكن أن يكون لرجال الأعمال المسلمين دور في هذا المجال.

● والأدب الإسلامي للطفل؟

- هذه قضية تستوجب الاهتمام، فنحن نعرف أهمية أدب الطفل في عملية التربية والتنشئة.

ينبغي تشجيع الإبداع الأدبي للطفل.. إبداع من خلال رؤية إسلامية، فالحقيقة أن معظم كتابات الطفل تتأثر بإبداع الثقافات الأخرى. ولما كانت المسابقات الأدبية من أهم سبل تشجيع الأدباء ورعايتهم لذا ينبغي تنظيم مسابقات خاصة بأدب الطفل، يُعلن عنها في جميع بلاد العالم الإسلامي وأن تخصص للفائزين فيها جوائز قيمة، بالإضافة إلى نشر الأعمال الفائزة في طبعات جيدة، وبالطبع.. تأتي رابطة الأدب الإسلامي العالمية في مقدمة المنظمات والهيئات التي يمكن أن تنظم هذه المسابقات وتسهم في تمويلها.

الأدب الإسلامي إبداع إنساني أخاذ، تسمو به النفوس وتصفو.

● ما رأيك في الأدب النسائي؟

- لا يوجد أدب اسمه الأدب النسائي. الأدب هو الأدب، مهما كان نوع المبدع.. رجل أو أنثى. هناك سيدات يبدعن شعراً أو قصصاً... وهناك إبداع يتناول قضايا المرأة.. ولكن في النهاية هو أدب فحسب.

● هل يمر الشعر العمودي - كما يقول بعضهم - بأزمة إبداع؟

- الحقيقة أنها أزمة اهتمام إعلامي بالشعر العمودي. إنهم يحاولون (تحجيمه) وعزله، حتى تخلو الساحة الأدبية للشعر الحر. نعم.. الشعر العمودي مزدهر، إلا أن وسائل الإعلام تحاول جاهدة أن تغلق الباب في وجهه.

إنها مكيدة للنيل من الشعر فن العربية الأول. إن هدم بناء القصيدة، وإعدام القوافي، يعد هدماً للغة العربية.. فمن المعروف أن من يتقن الشعر يتقن اللغة، وهم لا يريدون أن تتقن الأجيال الجديدة لغتها، ومن ثم تعجز ألسنتهم عن قراءة القرآن الكريم وحفظه.

هي إذن حرب سوداء مأكرة هدفها الإسلام.

والعودة إلى الوثنية!

بقلم / د. عماد الدين خليل *

[١]

بغض النظر عن القيمة الفنية لروايتي الأديب الأمريكي جون شتاينبك (البحث عن إله مجهول)^(١) والأديب الألماني هيرمان هيس (سد هارتا)^(٢)، حيث تعتبر الأولى واحدة من أعمال شتاينبك الاعتيادية، وتكاد الثانية أن تكون من أكثر أعمال هيس، بعد (لعبة الكرات الزجاجية)، إتقاناً فنياً.

الموضوعي، إذا استخدمنا المصطلح النقدي - بحثاً عن الأرض الصالحة للإنتاج والاستقرار. وفي مكان ما هناك، يجد البطل بغيته، فيلقي عصا الترحال وينشئ مزرعة، ثم يلحق به إخوته، بعد وفاة أبيهم «توماس» الانعزالي الذي يجد عزاءه في صحبة الحيوان، «بيرتون» المتدين الكتيب، و«بنجامين» الحيتي المنحل.

ومنذ البدايات الأولى يضع شتاينبك لمساته التي ما تلبث خطوطها أن تزداد عمقاً ووضوحاً، لكي تؤكد الحالة التي يحل فيها الإنسان في الطبيعة وتصير هذه أو بعض رموزها، معبوداً: «وأحس في نفسه عطفاً على العشب والأزهار وحباً لهما، كما أحس بأن الأشجار أطفال أعزاء على قلبه، أطفاله هو، فلذات كبده التي غداها من دمه، وأن الأرض ولده الأكبر، يحبه، يعشقه، يقدره، يعبد، فهو هو .. الأرضي .. جوزيف، فلماذا لا يعبد نفسه»^(٣).

فإذا استثنينا مفردتي (التقديس) و (العبادة) اللتين تحملان دلالتها الوثنية الواضحة، كما سيتأكد فيما بعد، فإننا سنجد أنفسنا إزاء وضع أو خبرة قد تكون اعتيادية: حب الأرض والاعتزاز بها، والتواصل معها باعتبارها مصدر العطاء. إننا نقرأ في مكان آخر، عرضاً مؤثراً لهذا التقابل المألوف، المتوازن، بين الإنسان والأرض: «.. انقضى

مهما بذل من جهد، واستنفر من طاقات، ولن تكون النتيجة إلا نوعاً من الوهم، من الاعتقاد الزائف بأنهم وضعوا أيديهم على ما يريدون، وأن هدفهم المرتجى قد تكشف إزاء وعيهم وقناعاتهم بكل الصدق المطلوب.

هذه المعضلة.. معضلة البحث عن الله والعودة إليه، عولجت في الغرب على أكثر من مستوى يتراوح بين الفلسفة والفن، ويتأرجح بين الأكاديمية والإبداع. ولقد سبق أن تابعنا جانباً من هذه المحاولات في كتاب «تهافت العلمانية» الذي صدر في منتصف السبعينات.

أما هذه الصفحات فستنصرف إلى متابعة نموذجين إبداعيين لاثنين من أشهر الروائيين المعاصرين، سعيًا إلى التعبير، كل من زاوية رؤيته المستقلة، وبصيغة الخطاب الإبداعي، عن المعضلة، وتصوراً كما لو أن البطل قدر في نهاية الأمر على تحقيق بغيته ووصل إلى الإله الذي جهد في البحث عنه.. ولكن ما هو تصويره للخالق عز وجل.

[٢]

في (البحث عن إله مجهول)، والعنوان يحمل جوهر العقدة الروائية، يغادر البطل (جوزيف واين) أرض آبائه وأجداده باتجاه الغرب الأمريكي - ولهذا دلالة أو معادله

بغض النظر عن الجانب الفني فإن الصفحات التالية ستتمركز عند المضمون، وبعبارة أدق عند جانب من المضمون، ينطوي على رؤية تكاد تكون واحدة للمعبود، وهي رؤية ترجع بالإنسان مسافات زمنية متطاولة، باتجاه الوثنية الطبيعية، (الحلولية) مرة أخرى، بعد إذ حرّته الأديان السأوية من ثقلها وظلمتها وتسطّحها وتفاهتها وتزييفها، ورفعه إلى أفق التوحيد وعمقه وصدقه وعقلانيته وألقه!

الروائيان ابنا بيئة غربية، قطعت جلّ علاقتها بالنصرانية المحرفة، وفاءت إلى العلمانية أو الإلحاد.. ولكن بمرور الوقت أدرك الأبناء والأحفاد حقيقة أن المرء فرداً أو جماعة يصعب عليه، بل يستحيل، أن يظل منكراً لوجود الله. ولقد كانت النخبة أو الطليعة المثقفة الواعية، ذات الاحساس المرفه في التعامل مع الحياة والوجود، أكثر إدراكاً لهذه الحاجة الملحة، ولضرورة أن يرجع الإنسان الضائع إلى الله.

ولكن كيف؟ ذلك هو السؤال.. فإن الاهتمام إلى الدين الحق لن يكون سعيًا وضعيًا، أو جهداً بشرياً ارتجالياً... وبدون إشارة تحييء من فوق.. وحي أمين يحمل رسالة السماء إلى العالم، فإن أشد الناس ذكاءً وفاعلية وإدراكاً لن يقدر على بلوغ الهدف،

(*) مؤرخ وأديب وناقد عراقي، صدرت له عشرات من الدراسات والمؤلفات والأعمال الإبداعية في الشعر والقصة والمسرح.



شتاينيك

تلك الحوارية المؤثرة بين البطل والأرض، فيما مرّ بنا قبل لحظات، لكنه يمضي قدماً باتجاه «الضلال» الذي تنعكس فيه الوضعية البشرية، وتغدو هذه الشجرة أو تلك، وهذه الصخرة أو تلك، وثناً يعبد، ويصير الإنسان عبداً للحجارة والأشياء، وتجاوز النظر إلى السماء كان سيّداً.

وليس بعد الحق إلا الضلال، ولا بعد كرامة العبودية لله إلا التمسّح بالأشجار والحجارة والأشياء، وتجاوز النظر إلى السماء صوب التحديق بالأرض التي تصير حينذاك إلهة تحيي وتميت! ونستمع إلى جوانيتو ذي الأصل الأسباني، الذي يعمل مع البطل في المزرعة، يقول له:

«- لقد علمتني (يقصد أمه الهندية) أن الأرض هي أمنا جميعاً، تهب الحياة لكل ما عليها، وتعيدها إلى صدرها عند وفاة صاحبها. وعندما ألاحظ ذلك يا سنيور أصدق قول أمي، فأعتقد بصحته. وعندئذ أقرر أنني لست من قشتالة وإنما هندي.

- ولكنني لست هندياً يا جوانيتو، ويبدو لي أنني أعتقد بصحة ما علمتك أمك»^(٥) ويلمس المرء هنا رفضاً للنصرانية «أشياء لا تسرّ الأب انجيلو» كما قال جوانيتو لصاحبه^(٦) إنه - في نهاية الأمر

المتفرد جلّ في علاه.

توازن واضح:

في المنظور الإسلامي ترسم خطوط توازن عجيب في الحوار بين الإنسان والأرض، شأنها شأن ما يفعله هذا الدين في سائر مناحي الممارسة البشرية في العالم. إنه يفتح الباب على مصراعيه لكي يأخذ الإنسان من الأرض ما هو بأمرس الحاجة إليه جمالاً ومعاشاً.. عطاءً وجدانياً، وغذاء لضرورات الحياة والوجود.. لكنه بتصميمه المعجز للعلاقة بين الطرفين، علاقة السيد المريد بالخدام المسخّر لمطالبه ابتداءً، لا يسمح بالتسبّب والانفلات والذهاب بعيداً، أو الارتداد بعبارة أدق، صوب الوثنية التي تقدّس الطبيعة، وتعبد الأرض، وتقرّب لرموزها، وتتنازل عن المرتبة العليا التي منحها الدين الحق للإنسان.. وتنسى الله.

تصميم معجز لأنه يشبع كل حاجات الإنسان الوجدانية والحسية والحيوية، يشبعها إلى مداها، ولكنه يمنحها في الوقت

أسبوعان من الزمن وهو وحيد في هذه الأرض، يقطعها كل يوم من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، يتحدث مع البلوطات فيها، ويداعب الشجيرات على حافة مسيل الماء. إنه يدغدغ الأزهار البرية الكبيرة، ويخاصر جذوع السنديان. يتحدث إلى كل صخرة، ويهمس في أذن كل قاع من الأرض المنبسطة. وهو يناجي غابة الصنوبر ويطارح التلة الصغيرة الغرام. كان يشتهي الأرض فيكلمها، ويخاطب الرمل بأدق لغة وأعذب لسان، مع أنه لا يحسن الحديث مع الناس...»^(٤).

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد.. عند التواجد مع الأرض والاندماج في جمال الطبيعة، والتعاطف مع الموجودات، وهي الحالة المتوازنة، المطلوبة، التي تعمق معطيات الإنسان الحسية والوجدانية، وتزيدها غنى وعطاء، والتي وهذا هو الأكثر أهمية - تمنح الايمان بخالق الأرض والطبيعة والجمال، زاداً يعينه على المزيد من التألق والخفقان!

والأرض، في الأساس،

مسخرة للإنسان، وكل ما يخفق فيها ويختبئ في طياتها، أو يطل برأسه في جنباتها، إنما هو دعوة للإنسان... دعوة مزدوجة أو نداء ثنائي يغدّي وجدانه حيناً، ويهبه الوسائل

والتيسيرات التي يديم بها حياته ويرقيها حيناً آخر، وهكذا فإن التعاطف مع الأرض، بل التواجد الذي يبلغ حدّ الذوبان والإعجاب، إنما هو أمر طبيعي بين طرفين أحدهما يأخذ والآخر يعطي، ولكن يبقى الأخذ هو السيّد المطاع، ويبقى المعطي خادماً مطيعاً، لا معبوداً يخشى منه ويتقرّب إليه، وقبل هذا وذاك، وبعد هذا وذاك، يبقى الأخذ والمعطي خلقاً من خلق الله، وتبقى علاقة الأخذ والعطاء هذه، دعوة مفتوحة للتوجه بالشكر والامتنان للمعبود الخالق

في المنظور الإسلامي ترسم خطوط توازن عجيب بين الإنسان والأرض أما في المنظور الغربي فلا..

نفسه الضوابط والصامات التي تحميها من التسبّب والارتداد صوب تعبد للأدنى لا يليق بالإنسان.

في الصيغ الوضعية والدينية المحرّفة، يختل التوازن، وتضطرب العلاقة، وتتصادى الأفعال الخاطئة وردودها، لكي تدفع الإنسان إلى القطيعة والعزلة والجفاء حيناً، وإلى الاندماج والذوبان والفناء الذي يضيع معه الإنسان وينزل عن موقعه المتميز، المتفرد، العالي، حيناً آخر.

في رواية شتاينيك لا يقف الأمر عند

- تراجع باتجاه الوثنيات العتيقة فراراً من ضغوط دين لم يعد بقادر على إعادة المؤمنين إلى أحضان العالم. ولسوف نؤشر على هذه المعضلة في مقطع آخر. والمهم هو أن القارئ كلما أوغل في متابعة البحث عن (إله مجهول) أخذ يتكشف له شيئاً فشيئاً البؤرة التي تستقطب الحبكة الروائية، الإيمان الوثني الذي يستعيز به صاحبه عن الدين المرفوض.. هذا الإيمان الذي يعتبر عن نفسه حيناً بعشق جارف لنماء الحياة والتكاثر، حدّ الحلول والاتحاد، والتلاشي بين الإنسان والوجود، يتجاوز بدايات العقل لكي ينحدر صوب نوع من الحسية التي يصبح فيها الإنسان والحيوان والنبات والأشياء.. سواء: «لم تكن في المزرعة عائلات ولا عجول ولا أمهار، كان كل ذلك أبناء وبنات لجوزيف.. إن كل شيء حوله يموج بالخصب.. الأرض والأبقار والناس، وشهوته الخاصة تتوزع على الجميع فتلقمه. كانت تقتله الرغبة في النماء، في التكاثر، يودّ لو ينمو كل شيء حوله بقوة.. وكانت عيناه الزرقاوان يشع منهما بريق شهوته

العارسة، بريق إيمانه الجديد وعقيدته الراسخة.. وعندما

كانت تسير باتجاهه كلبه منتفخة البطن تحمل سبعة جراء أو ثمانية، أو بقرة في أحشائها عجل، فإن جوزيف

يشعر تجاهها بشيء من القداسة والإجلال، بل أكثر من ذلك، يكاد يعبدها ويطلب بركتها.. ولا عجب فلكل امرئ دين ما، وهذا دين جوزيف. وإذا كان الناس يحملون معتقداتهم الدينية في رؤوسهم فهو يشعر بدينه في صلبه وعضلات فخذه، وليس الرأس أجل قدراً ولا أرفع قيمة. كان هذا لبن الرضاع في أفواه أفراد هذه العشيرة منذ مليون عام، يورثه السلف للخلف، ويمتزج الجميع بالأرض فتفاعل مع خصبها نفوسهم وتتحد أرواحهم»^(٧).

هذا الإيمان الوثني الذي تضيق به المساحة حيناً آخر يعود فيتمركز عند ظاهرة طبيعية أو شيء من الأشياء.. عند شجرة بلوط أو صخرة قاعية سوداء فيتخذ منها الها: «في منتصف تلك الساحة كانت تنتصب صخرة شماء في حجم بيت كبير، وتبدو في منظرها هي الغموض والرهبة. وبدا أن يداً ماهرة قد أكسبتها ذلك الشكل، مع أنه لم يكن لها شكل معين تحتفظ به ذاكرة من شاهدها، وكان يغطيها الطحلب كثيفاً شديد الاخضرار. كانت الصخرة كأنها مذبح قديم انصهر فتكور على نفسه. وفي جانب منها ظهرت مغارة صغيرة سوداء تحرس بابها خمس شجيرات من السريس على ضفتي جدول يخرج من هناك ويسيل في عرض الساحة العارية رقراقاً ينساب بهدوء الهيكل المقدس، ثم يخفي أثره بين الشجيرات الملتفة في الطرف الأقصى من الساحة.. وقال جوزيف مخاطباً أخاه: لا تخف إن في المكان قوة وطيبة وجمالاً هنالك ما يشبه الغذاء الروحي يا توماس، يجوز أن

العقيدة الخاطئة تظهر في أعمال الغربيين عندما يدعون الأرض بأنها الأم وكل شيء..

نساه الآن، ولكننا سنعود إليه عند الحاجة يوماً ما لتزود منه»^(٨).

ومنذ اكتشاف هذا المكان أصبحت الصخرة، المعتمة، الغامضة، وما يحيط بها من رموز طبيعية معبداً يأوي إليه جوزيف ليتزود منه، ليطرده الخوف والأسى والحيرة «أما إذا كان لك حاجة بسبب فقدان شيء عزيز فإن ذلك المكان هو الذي يجب أن أقصده»^(٩).

ويتكشف هذا التوجه الوثني، أكثر، في زيارة أخرى للمكان: «كان الهدوء شاملاً

اللهم إلا خريف جدول بعيد.. وظل جوزيف يسير إلا أن سحابة من الخوف بدأت تلف نفسه.. وما لبث أن استولى عليه شعور بالرهبة كان المكان رهيباً، ولكن فيه قداسة تبعد الخوف الذليل، وتجعل الرهبة إكباراً وتقديراً. ولاحق له الصخرة العاتية في منتصف الساحة.. ولما أن قاربها شعر بما يشعر به صبي يسير متجهماً إلى المذبح، بين مقاعد كنيسة مقفرة، وقد ثبتت عينيه على صور القديسين.. ونظر جوزيف إلى الصخرة علّه يستمد القوة والمعرفة، وغادر المكان وهو يشعر بابتهاج عظيم، أما تحقق له أن روحه من روح الأرض»^(١٠).

ما الذي يجعل موقف جوزيف هذا قبالة الصخرة لا يختلف بشيء عن موقف العرب الجاهليين، أو أتباع أية ديانة وثنية في العالم وهم يلتمسون من الوثن أو الصنم «القوة والمعرفة»؛ ولطالما حدثنا الطبري وابن الكلبي وغيرهما عن الأبحار.. عن الأنصاب والأزلام التي كانوا يزعمون أنها تقرّر مصائر الغادين والرائحين.. إن ما شهدته جزيرة العرب يومها، يشهده الغرب الأمريكي، بل تشهد كل بقعة في العالم يختار فيها الإنسان، جهلاً أو عجزاً، أن يشيئ المعبود، لأنه لم يجد الديانة الملائمة لوضعه وأشواقه، التي ترفعه إلى فوق، وتضعه في مكانه الحق المناسب له كإنسان.

[٣]

تمركزت وثنية البطل عند ظاهرتين: البلوطة القائمة في مزرعته قريباً من البيت، وتلك الصخرة السوداء التي ازداد تعلقه بها، بعد تبسّس البلوطة وموتها: «تحركت أغصان البلوطة الجبارة كأنها تستشعر نسمات الحياة.. بينما كان يشع من عيني جوزيف

بريق الغبطة والسرور، لأن روح والده قد حلت في تلك الشجرة فأكسبتها فتوة ونشاطاً.. ورفع يده محيياً البلوطة وقال: يسرني أن قدمت لزيارتي يا سيدي الوالد. وهز رأسه وضحك من نفسه خجلاً من هذه الأفكار، وعجباً من شعور عارم غمره بالقرابة والألفة بينه وبين البلوطة^(١١)، لكنه ما لبث أن أكد لجوانيتو، صديقه، أن أباه قد حل في الشجرة، وأنه البلوطة نفسها^(١٢).

وبمرور الوقت أخذ جوزيف يتمسح بالشجرة، ويناجيها في الأزمات، ويعلق الطيور المذبوحة قرباين عند فروعها^(١٣)، ويطعمها لحماً^(١٤)، كان يعتقد أنها كالآب تحرس الشجرات الصغار، وتحرس المزرعة ويوماً لاحظته الأب انجيلو، قسيس مدينة (السيدة) المجاورة، يسكب شيئاً من الخمر عند جذورها، فأدرك ما يعنيه ذلك، وقال لجوزيف: «ليس هذا حسناً يا بني.. إن المسيح أقدر على تخليص روحك من قوى الطبيعة..» ثم تابع كلامه مشيراً إلى جذور تقاليد وثنية كهذه: «بمثل هذه الطريقة ظل الشيطان يحكم هذه البلاد طوال آلاف السنين»^(١٥).

كان يضع أسرارته بين يديها.. يتسلل إليها في أعماق الليل لكي يهمس عندها بما يدور في نفسه: «سيلدلي طفل يا سيدتي وأعدك بأن أضعه بين يديك حين يولد. وشعر جوزيف كأن جذع البلوطة يمد أصابعه ليتلقف الطفل بحنان». البلوطة إذن ستولي تجميع طفل.. وهي نفسها ستحميه وأهله جميعاً من كل خطر أو خوف: «هنالك عاصفة على وشك الهبوب، أنا أدري أنه لا يمكنني النجاة منها، ولكنك يا سيدي تعرف كيف تحمينا جميعاً»^(١٦).

وهو يذكر جيداً كيف أن تعبده الوثني هذا بدأ هيناً لكنه ما لبث أن اشتد قوة حتى كاد يملك عليه عقله فأصبح يشعر بالارتياح والسلوان كلما مارسه... ويحذره

أخوه المسيحي بيرتون: «ربما تعتقد أن شرك مكتوم. كلا! لقد راقبتك ورأيت الوثنية تنمو في نفسك فجئت لأحذرك من عاقبتها.. لقد لاحظتك وأنت تنسل إلى شجرتك يا جوزيف.. لقد تخلت عن الرب، وسيعاقبك على ذلك.. تعال وصل معي، وسيعفو المسيح عن معصيتك، ويعيدك إلى حظيرته آمناً. ولتقطع هذه الشجرة». ويكون جواب جوزيف مزيداً من التشبث بالمعبود: «أنقذ نفسك أولاً يا بيرتون، فأنت شديد التزمت.. وأرجو ألا تتدخل في أمور غيرك»^(١٧).

وتلاحظ زوجته تعلقه هذا بالبلوطة فتسأله: «قل لي لماذا تحب الشجرة إلى هذا الحد؟ هل تذكر كيف أجلسني في مجمع أفرعها حين زرت المزرعة لأول مرة؟». فيجيبها: «لأنها شجرة ضخمة وجميلة، أحبها لأنها شجرة كاملة حقاً كما أظن». ولا تقتنع إليزابيث، لقد لاحظت ما هو أكثر من هذا، لقد سمعته ليلة يتحدث إليها كما لو كان شخصاً عادياً، سمعته يخاطبها قائلاً: «سيدي»^(١٨)، لكن جوزيف ما لبث أن منحها قناعاته وفتح الطريق أمامها لكي تنفذ إلى أعماق شخصيته «وعرف أنها فهمته»^(١٩).

ومن أجل أن يبارك طفله ويحميه، أراد أن يضعه في مجمع أفرع البلوطة، وتوسل إليه أخوه بيرتون ألا يفعل، لكن جوزيف أجابه بأنه لا يرى خطيئة فيما يفعل فاغرورقت عينا بيرتون بالدموع وقال: «إنك تسمح للشرا أن يقدم، فأنت تفتح له الباب بعملك هذا، ولن يمر ما تفعل دون عقاب» ويضحك جوزيف قائلاً: «إذن دعني أواجه هذا العقاب».. وبلغت بيرتون إلى إليزابيث: «اسمعي، إن أخي جوزيف ينكر السيد المسيح، ويتعبد على طريقة الوثنيين، فهو يفسد روحه ويسمح بذلك للشرا أن يصيبنا». فما معنى تعليق الضحايا على

الشجرة، وسفح الدم على عروقها وتقديم كل ما طاب إليها؟ «هل تعتقد أن هذا شيء تافه؟ لقد رأيتك تنسل من البيت ليلاً، وسمعتك تحدث هذه البلوطة، فهل كان ذلك شيئاً تافهاً يا جوزيف؟» فيجيبه هذا: «نعم شيء بسيط لا ضير فيه» فيقول بيرتون غاضباً: «لقد حاولت أن أساعدك، فهل ما زلت مصراً على عدم القسم بألا تفعل» يجيب جوزيف: «نعم، فلن أقسم على شيء يضيق حدود حرّيتي لن أفعل» فيعلن أخوه: «إذن أنبذك ولا أبقي هاهنا.. لن أنغمس في شرّ تصر على التردّي فيه»^(٢٠) ويغادر بيرتون المزرعة ميمماً وأسرته صوب ساحل المحيط.

وتحيء موجة الجفاف التي تضرب المنطقة لكي تبيس أعراق البلوطة، فتدوى وتموت.. «وربّت جوزيف على جذعها فإذا به يقول فجأة: أواه، هذه الشجرة ميتة. لا حياة في شجرتي الحبيبة. ودّخه شعوره

لا تزال بعض الأعمال الغربية تعجّ بهراسيم القرايين من أجل الحياة!

بالخسارة العظيمة، فترنح جسمه، وانتابه الذعر مما يجد، تماماً كما انتابه مثله حين أحسّ بفقدان والده.. وأحاطت به الجبال بنظراتها القاسية، لا ود فيها ولا حنان، وتزحزحت الأرض من تحت أقدامه، وبدأ له كل شيء عدواً لدوداً، وهو يقف وحيداً، أعزل صامتاً، ميت النفس.. وفكر: والآن ما العمل؟ إلى أين الفراق»^(٢١).

[٤]

وسرعان ما تذكر وثنه الآخر.. إله الثاني: إذا كانت البلوطة قد ماتت فثمة الصخرة السوداء «وقال في نفسه: أنا في حاجة إلى الراحة والهدوء، إلى الروح التي تغمر ذلك المكان، سأذهب حالاً إلى غابة الصنوبر

وأفكر في الأمر قريباً من الصخرة والينبوع» (٢٢).

وزوجته إليزابيث، اعتقدت هي الأخرى أن الصخرة تمنحها شيئاً هي بأمر الحاجة إليه، وما هي ذي تخاطب جوزيف: «لقد أحبت الصخرة أكثر من حبي لك، وللطفل، وحتى لنفسي، وأعجز الآن عن مقدار حبي لها، وتراءى لي أنني دخلت في جوف الصخرة، وكان النهر ينبع مني أنا، فقد كنت الصخرة ذاتها، وكانت الصخرة، لا أدري كيف أقولها، كانت أعز شيء في الوجود على قلبي» (٢٣).

وما يلبث المعبود أن يقتل إليزابيث التي سيطر عليها إحساس قاسٍ بالخوف من الصخرة.. نوع من الحلم التسلسلي الذي سعت إلى الفكك من أسره عن طريق ارتقاء الصخرة وإذلالها، فتزلق قدمها وتسقط على الأرض مستقرة عليها بلا حراك.. «وأخيراً نهض جوزيف، فربت على الصخرة وقال: الآن أنتما اثنتان هنا، وسأعرف أين يجب أن أزور. ويعني بذلك أن روح والده وزوجته قد انتقلتا.

وتضرب المكان موجة من الجفاف القاسي التي تحصد الزرع والضرع، ويلجأ توماس على أخيه بالرحيل غرباً، بحثاً عن مكان آخر، خارج دائرة الجفاف، قبل أن يخسر كل شيء.. فيرفض جوزيف أول الأمر لكنه ما يلبث أن يجد نفسه مضطراً للاستجابة.. ويرحلان معاً لاكتشاف المكان الجديد، ويجدان بعد عناء، لكن جوزيف سرعان ما يقرر العودة إلى أرضه المحترقة رغم كل شيء: «لا أستطيع مبارحة المزرعة يا توماس، فهي أرضي» وكان قد تأكد لديه أنه هو نفسه الأرض (٢٥)، «ورنا يبصره إلى الغاية وقال: الآن صرت أنا وأنت واحداً، لقد اتحدنا فلنعمل معاً وهبت الريح من التلال وارتفعت عاصفة من الغبار في فناء الدار، وكان ذلك تكريساً مقدساً للاتحاد كما فهم جوزيف» (٢٦).

قرايين لماذا؟

وبينا رحل توماس غرباً بأفراد العائلة

الأرض، ومن دمي سينبت الحشيش، فتثقل به سفوح التلال من جسد بعد قليل. واشتدت العاصفة، فاطلمت السماء من غزارة المطر، لأن جوزيف لم يعد موجوداً إلى الصخرة، فعليه أن يزورها، ينشد السلوان، أو يشاركها مقرها الأخير» (٣٠).

إنها مفردات الوثنية نفسها، تلتصق بالأرض وتتحلل مع الجسد.. نفس المفردات التي اخترقت النصرانية، فأطفاً ألقى التوحيد، وجعلت من امتزاج الدم بالخبز طقساً مقدساً.

ويمضي شتاينيك إلى ما هو أبعد، فإذا بالمسيحية تعجز عن تلبية حاجات المأزومين، وإذا بالوثنية تلي النداء فتفعل ما لم يكن بمقدور تلك أن تفعله لقد قاتلت وجوزيف الجفاف بالطقوس والأضحيان والاتحاد بالأرض، فنزل المطر «وتدفقت مساليل التلال، وامتصت الأرض ما احتاجت إليه حتى غدت سوداء داكنة من كثرة الرطوبة، وعم الخير (وادي سيدتنا) وكان كل شيء يفيض بالجود والبركة» (٣١).

فما الذي فعلته المسيحية؟

«كان الأب انجيلوخوري كنيسة (مدينة السيدة) يجلس في مكتبته يقرأ (تأملات القديس برتلميو) عندما ابتدأ سقوط المطر. ولما تزايد هطوله أغلق أبونا كتابه.. وتذكر كيف صلى من أجل ذلك المطر، فسرته الذكرى، واعتبرها كرامة عند الرب واستجابة من الرب إليه» (٣٢).

ومعروف تماماً ما الذي يريد شتاينيك أن يقوله لنا: إن الأب انجيلو يسرق الدور من جوزيف، والمسيحية المعلقة بالصليب تنتظر، تدعي القدرة على إنزال المطر، كرامة من الرب، والذي أنزلها إنما هو اتحاد البطل بالأرض!

[٥]

ومنذ البدايات الأولى للرواية يجعل شتاينيك جل أبطاله يرفضون المسيحية، ابتداء من الأب الذي يحكي عنه أحد أبنائه:

كافة، كان جوزيف ييمم وجهه صوب الصخرة لكي يؤدي مراسيم الزيارة منفرداً «دخل الحلقة المكشوفة بين أشجار الصنوبر عاري الرأس، احتراماً منه، وواجه الصخرة فارتعش جسده، إلا أنه تقدم نحوها ولكن بخشوع.. وأحس حينئذ أنه قد اتحد بالصخرة وطحلبها.. وقال: هنا تظل الأرض آمنة من الموت، فهذه الصخرة مركز الحلقة، والماء ينبع من تحتها وهي التي ستحتفظ ببذرة الحياة للأرض حتى يحل الشتاء القادم.. لقد جئنا في الوقت المناسب، وسنظل هنا في أمان من الأرض، ولنحفظ لها بذرة الحياة.. لقد أصبح يعتبر نفسه صخرة أخرى، فهو وإياها شخصان متحدان في شخص واحد، وبلغظ الدين أقنومان» (٢٧) ومنذ ذلك الحين «عاش جوزيف في صومعته إلى جانب الصخرة، يهبها الحياة من ماء الينبوع، وتببه الحياة بالطمأنينة التي تدخلها على نفسه.. وهجر بيته إلى حيث يتنسك إلى جانب الينبوع والطحلب. كان كاهناً وجد الماء والطعام والعبادة فزهد في غيرها» (٢٨).

وكما كان يفعل الوثنيون القدامى، فإن جوزيف من أجل أن يفجر الينبوع الذي جف ماؤه، ضحى بعجلين عنده غله يجيء بالماء ولكن دون جدوى (٢٩) ونراه في آخر الرواية يخرج سكيناً من جيبه، لكي يقطع شرايين رسغه المتألم، فيسيل الدم، ويتخلل ما بين عروق الطحلب.. «وشعر جوزيف بالوحدة تماماً عندما رأى دمائه تسيل، وهو ينقطع حتى عن الغاية نفسها. لقد تحلل واتحدت روحه مع شيء لا يدرك كنهه.. وسمع عويل الرياح خلف حدود الغابة، وبدت له السماء رمادية قائمة، فتمد على الصخرة، ومد ذراعه المقطوع، وأخذ ينظر إلى سلسلة الجبال في جسده... وأخيراً شعر بنفسه خفيفاً، فطار وارتفع في السماء، وحينئذ انصب على الأرض وابل غزير من المطر.. وهمس لنفسه: أنا هو المطر، وأنا هي

«لقد حاولت أن أجعله يصلي للرب، فلم أفجح، وقد أزعجني جداً أن كلماته التي فارق عليها الدنيا ودخل في الآخرة لم تكن مسيحية»^(٣٣) وفيما بعد عندما يقرر بيرتون، الأخ المتدين، الذهاب إلى مخيم للتجمع يقع على ساحل المحيط، يقول أخوه توماس: «إن بيرتون يأكل الله كما يأكل الدب اللحم في الصيف ليدفئه في الشتاء»^(٣٤).

وعندما يتزوج جوزيف ويتم إجراءات الزواج في الكنيسة، يحس بالاختناق ويفكر مع نفسه: «ثمة خبث في هذا المكان، لماذا يجب أن نمرّ بكل هذه الإجراءات الحمقاء، حتي يثبت زواجنا؟ لقد كنت أظن أنه لا بد وأن يكون في الكنيسة جمال الحياة، لكنني لم أجد إلا نوعاً سخيفاً من عبادة الشيطان المملة. وشعر جوزيف بخيبة أمله في بيت الله وجهاله، كما دهش من إصرار اليزابيث على ضرورة هذه المراسيم التافهة، قبل أن تدخل في زوجتيه» وعند سماع الأجراس وهما يغادران الكنيسة قال: «ها هو الله قد جاء متأخراً إلى عرسنا»^(٣٥).

ويُدعى الأب أنجيلو إلى احتفال ديني في المزرعة، وكان لا بد وقد وافق على الحضور، أن يحمل معه مقدساته لإقامة القداس هناك: «كان على بغل ضخّم قد ربط إلى «حياصته» رسن (كديش) سمين، حل عليه مشاهد المذبح والكنيسة والصليب وكان خلفه ولدان على حمار صغير. وأسرع الأب أنجيلو إلى الحمل ففرد القداس على المذبح وأشعل الشموع، وضع الولدين لتفتح عقلياتها فينشطا، ويأتياه بها يطلب. ثم فرد حاجياته فكانت صورة للعدراء وطفلها من حولها القديسون والملائكة بأجنحتهم المذهبة... كل ذلك من الخشب الرقيق، بحيث يكون سهل الطي بفضل فصالات صغيرة أتقن الأب دهانها فلا تبين فتشوّه رأس المسيح ولا ركبة العدراء إطلاقاً»^(٣٦).

ويصف شتاينيك الأب أنجيلو بأنه كان

«رجلاً صارماً فيما يتعلق بأمر الكنيسة. ولكنه ما أن تنقضي مهمته مع ربه حتى يعود لطيفاً طلق اللسان بشوش الوجه، وأحياناً مليح النكتة أيضاً. فحين يحمل بيده قدحاً من النبيذ، ويمتلئ فمه بشرائح اللحم، لن تجد من تسبق عيناه عينيّه في الغمز واللمز»^(٣٧).

وتتوالى الضربات الساخرة بالمسيحية وطقوسها عبر الرواية كلها، حتى إذا بلغنا خاتمة المطاف، التقينا بجوانيتو صديق البطل يسأله: هل فكرت في رؤية الأب أنجيلو؟ فيسأله جوزيف بدوره:

«- تعني الخوري؟ لماذا أقبله؟

- لا أدري لم؟.. ولكنه رجل عاقل حكيم ومقرب من الرب.

- وماذا باستطاعته أن يفعل؟

- لا أدري.

- وماذا أستطيع أن أطلب منه؟ وما الذي عنده حتى يعطيني منه؟

- لا أدري، ولكنه يمكن أن يصلي من أجلك!

- وهل سيكون ذلك ذا نفع لي يا جوانيتو؟»^(٣٨).

ومرة أخرى يعرض عليه جوانيتو أن يقابل الخوري: «ستعود أكثر راحة وأهدأ شعوراً، إذ مهما كان اعترافك أمامه قصيراً فإنه يجعلك تشعر بالراحة.

- لست من طائفة تلك الكنيسة يا جوانيتو، ولا يمكنني أن أعترف

- لا بأس فالخوري يقبله كل الناس.

على كل، ما دام الماء أخذاً في الارتفاع فلا حاجة لمقابلة الخوري»^(٣٩).

ويستجيب جوزيف أخيراً لتوسلات صديقه، ويزور الأب أنجيلو، «جئت أسألك أن تصلي طالباً المطر، فأنا من أهل فيرمونت وقد انتشرت عن كنيستك إشاعات كثيرة هناك.

- نعم أعرف ما يشيعونه.

- الأرض تموت الآن لاحتباس المطر،

فصل من أجله أيها الأب، هل فعلت ذلك سابقاً؟

وشعر الأب أنجيلو أنه أخذ يفقد بعض ثقته بنفسه وقال:

- سأعينك يا ولدي في أن تصلي من أجل روحك، أما المطر فسينزل، لقد أقمنا قداساً وسينزل المطر.

- وكيف تعرف أن المطر سينزل، والأرض تموت الآن أيها الأب؟

وظهر أن جوزيف يكاد يغلبه على نفسه فقال حانقاً:

- أنت مريض يا ولدي، مريض في روحك وبدنك، فهل تأتي معي إلى الكنيسة لتشفي نفسك؟

- روحي! إلى الجحيم بها! أنا أقول لك إن الأرض تموت، فصل من أجل الأرض لا من أجل روحي.. كان علي أن أعرف أين يجب أن أكون الآن، سأذهب إلى الصخرة وأنتظر»^(٤٠).

ومن عجب أن أنجيلو نفسه تهز ثقته بنفسه وإيمانه، وأخذ يفكر: «في قوة تأثير الرجل وشخصيته الطاغية، ثم نظر إلى صليب معلق فوق رأسه وقال: الحمد لله أن ليس لهذا الرجل رسالة يبلغها، الحمد لله على أنه لا يطلب العظمة والمجد وإلا لكان الناس آمنوا به، وجذف قائلًا: وإلا لظهر مسيح جديد في الغرب»^(٤١).

وليس ثمة صورة أقدر من هذه على التعبير عن اهتزاز المسيحية، بل هزيمتها، إزاء وثنية جوزيف، فالذي سيتصر على الجفاف.. الذي سينزل المطر هو تضحية جوزيف واتحاده بالأرض، وليس صلاة الخوري وطلبه النجدة من السماء!

[٦]

يبدأ (سد هارتا) رحلة البحث الصعب عن القناعة والأمان من بيئة عائلته البرهمية.. حياة الدعة والثراء والعبادة المسترخية، التي تحاصرها تقاليد الطبقة

العليا، وإلفها، واعتيادها.

الاستحمام المقدس، والقرايين المقدسة، وأحاديث العلماء.. الأب الذي يحب ابنه ويرجو له أن يصير عالماً عظيماً.. راهباً.. أميراً بين البراهمين.. الأم التي تزدهي حين تراه يمشي.. والفتيات اللواتي يتململ الحب في قلوبهن حين يصير صبياً..

لكن سد هارتا نفسه لم يكن سعيداً.. بدأت بذور الاستياء والقلق والحزن تنمو في نفسه، فلم يجد في هذا كله شيئاً، وراح يكثر من التأمل، واعترف لصديقه غوفيندا بما يعتلج في أعماقه.. إنه يريد أن ينسلخ عن هذا كله وأن يذهب للبحث عن الحقيقة. وعندما اجتاز المدينة عدد من النساء المتجولين (السامانات) قرر أن يلتحق بهن، حيث محاولة قتل الجسد، وإنكار الذات والتأمل.. وقال له أبوه بعد إذ يش من إعادته إلى الخطيرة: «ستذهب إلى أعماق من الغابة، وتصير سامانا. إذا ما وجدت نعيماً في الغابة، عدو أخبرني إذا ما تحررت من الوهم اقل راجعاً، وسوف نقدم القرايين مرة أخرى إلى الالهة معاً..» (٤٢).

«أعطى سد هارتا ملابسه إلى فقير براهمي على الطريق، ولم يستبق غير مثزره ورداء بلون التراب. لم يكن يأكل أكثر من مرة واحدة في اليوم، ولم يطبخ طعاماً على الإطلاق. صام ثمانية وعشرين يوماً. اختفى اللحم من على ساقيه وخديه. انعكست في عينيه المتسعيتين أحلام غريبة. طالت أظافر أصابعه النحيفة، وظهرت في ذقنه لحية كثة وخشنة. أصبحت نظرتة باردة حين يصادف النساء، تنعقص شفتاه ازدياء حين يمر عبر مدينة أناس أنيقين الملبس. رأى تجاراً يتاجرون، أمراء يذهبون إلى الصيد، مفعوجين ينتحبون على أمواتهم، عاهرات يعرضن أنفسهن، أطباء يعاينون المرضى، رهباناً يمددون يوم البذار، أمهات يهددن أطفالهن، وكل ذلك ما كان جديراً بنظرة

عابرة. كل شيء يكذب، نتانة أكاذيب. كل ذلك كان صوراً للحواس، للسعادة والجمال. كل ذلك مقدر عليه الفناء. كان للعالم مذاق مرير، كانت الحياة ألماً. إن لسدهارتا هدفاً واحداً لا غير: أن يصبح خلواً من العطش، من الرغبة، من الأحلام، من المتعة والحزن أن يدع الذات تموت أن لا يكون بعد ذاتاً، أن يجرب سلام القلب الفارغ، أن يمارس الفكر النقي، ذلك هو هدفه. حينما تكون الذات قد قهرت وماتت، حينما انصهرت جميع الأهواء والرغبات، عندها يجب أن يستيقظ الآخر، الكائن الأعظم الذي لم يعد ذاتاً بعد... السر العظيم» (٤٣).

تناسخ دوري:

وبعد الغاء الذات وتدميرها تبدأ رحلة التناسخ الدوري والحلول المكرور.. تعلم «على يد أكبر السامانات سنأ، مارس إنكار الذات والتأمل طبقاً لقواعد السامانا.. قتل حواسه، قتل ذاكرته، انسرب خارج كيانه في آلاف الأشكال المختلفة.. كان حيواناً، جثة، صخرة، شجرة، ماء، وكل مرة يعاود الاستيقاظ. تسطح الشمس أو القمر، يعود ثانية ليكون ذاتاً، يتقلب إلى دورة الحياة.. يشعر بعطش جديد.. تعلم سد هارتا العديد من الطرق في إضاعة الذات، سافر على طول طريق إنكار الذات عبر الأمل، عبر المعاناة الطوعية وإخماد الأمل، عبر الجوع، عبر العطش والإرهاق.. فقد ذاته آلاف المرات ولأيام عديدة كان يسكن بعدها في اللاكينونة. لكن رغم أن الطرق قد أخذته بعيداً عن الذات، إلا أنها في النهاية كانت تقوده عائدة دائماً إلى الذات. رغم أن سد هارتا قد فرّ من الذات آلاف المرات، سكن في اللاشيء، سكن في الحيوان والحجر، فالعودة كانت محتومة. كانت الساعة محتومة حين يكون عليه أن يجد نفسه ثانية.. ويكون مرة أخرى ذاتاً وسدهارتا،

مرة أخرى يتعذب من دورة الحياة الشاقة» (٤٤).

ويوماً يسأل صديقه غوفيندا الذي صار سامانا هو الآخر: «ما تراه يا غوفيندا أظن بأننا قد تقدمنا؟ هل أدركنا بغيتنا» (٤٥).

إن القلق ينفجر مرة أخرى، ومعه إحساس مرير باليأس وعدم الاقتناع.. ويتساءل سد هارتا: «ما هو التأمل؟ ما يكون هجر الجسد؟ ما الصوم؟ ما مسك النفس؟ إنه لفرار من الذات، إنه لهرب وقتي من عذاب الذات. إنه لتسكين وقتي للألم وحق الحياة. إن من يسوق الثور يقوم بنفس القرارات هذه، يأخذ هذا المخدر الوقتي حين يعبّ عدداً من كؤوس شراب الرز، أو حليب جوز الهند في الحان. عندها لن يكون شاعراً بذاته، لن يعود شاعراً بألم الحياة، عندها سيمارس هرباً وقتياً. سيجد ما يجده سد هارتا وغوفيندا حين يهربان من جسديهما بتمارين طويلة ويسكنان في اللاذات» (٤٦).

ويسأل صديقه مرة: «..أ نكون على الطريق الصحيح؟ هل نحصل على المعرفة؟ هل نتقدم من الخلاص؟ أما إننا ربما نكون ماضين في حلقات، نحن الذين نأمل أن نهرب من الدورة؟» ثم ما يلبث أن يعلن لغوفيندا عن قراره: قريباً يا غوفيندا، سيرك صديقك طريق السامانات، الذي طالما سافر عليه معك. إنني أعاني من العطش يا غوفيندا، وعلى هذا الطريق الساماني الطويل لم يتضاءل عطشي. لقد عطشت دائماً للمعرفة. كنت على الدوام مليئاً بالأسئلة. سنة بعد سنة ساءلت البراهمين.. ربما تتساوى في الخير، يا غوفيندا، تتساوى في الذكاء والقدسية، لو أنني ساءلت الكركدن والشمبانزي. لقد قضيت وقتاً طويلاً ولم أنته بعد، لأجل أن أعرف هذا الشيء: أن ليس بمقدور الإنسان أن يتعلم شيئاً. فهناك، كما أعتقد، في جوهر كل شيء ما لا نستطيع أن نسميه تعلماً. يا صديقي ليس هنالك غير معرفة واحدة، وهي في كل مكان.. في داخلي

وداخلك وداخل كل كائن، وبدأت أؤمن أن هذه المعرفة لا تملك عدواً أسوأ من رجل المعرفة، أسوأ من التعلم»^(٤٧).

[٧]

وبعد سنوات ثلاث مضت على كلال الشابين مع السامانات، سمعا خبراً. لقد ظهر شخص يدعى غوتاما، النير، البوذا: «شخص قهر في داخله أحزان العالم وأوصل دورة معاودة الولادة إلى نقطة وقوف. تجول عبر البلاد واعظاً، محاطاً بالمريدين، عديداً من الثروة، عديداً من البيت، بلا زوجة، يرتدي الرداء الأصفر للنسك، إنما بجبهة شامخة، رجل مقدس، انحنى قدماه البراهميون وأصبحوا تلاميذ له»^(٤٨).

وقال المؤمنون به: إنه يمتلك معرفة عظيمة، وقد بلغ النرفانا، ولم يعد على الإطلاق إلى الدورة، انه لم يعد يندفع في المجري المضطرب للأشكال.

وإذ وجد غوفيندا بغيته في القديس، فإن سدهارتا لم يكن مهتماً بالتعاليم «إنه لا يجد بأنها ستعلمه أي شيء جديد»^(٤٩). لقد أعجب بالرجل إلى حد التقديس.. وسمعه وهو يتحدث عن الخلاص.. لكن ما كان يفصله عنه إنما هو حاجز التعاليم.. إنه يريد أن يكشف الحقيقة بنفسه، أن يعيشها بكل خلية فيه، لا أن يعلمه إياها الآخرون. وإذا قبلها غوفيندا وتوسل إليه أن يقبلها هو الآخر، فإنه تردد كثيراً وألح على صديقه أن يمضي في طريقه الذي اختاره، أما هو فسيتركه مواصلاً الرحيل. وقال لغوفيندا: «كن مطمئناً يا غوفيندا، إن تعاليم الكائن النير جيدة جداً. كيف بمقدوري أن أجد عيباً فيها»^(٥٠) لكنه كان يجد أن «الحكمة غير قابلة للتوصيل. الحكمة التي يحاول حكيم إيصالها، دائماً تبدو خرقاء.. المعرفة يمكن أن توصل، إنما ليس الحكمة»^(٥١) وكان يجد في الانتماء لدعوة بوذا ازدواجية من نوع ما بين الفعل والكلمة، بين الممارسة الذاتية والتعاليم التي تحمي من الخارج: «ها

نحن نجد أنفسنا داخل متاهة من المعاني»

قال سدهارتا لصديقه، داخل تصادم الكلمات، لأنني لن أنكر أن كلماتي عن الحب هي في تناقض ظاهري مع تعاليم غوتاما. ذلك بالضبط هو عدم ثقتي بالكلمات كثيراً، لأنني أعرف أن هذا التناقض هو وهم.. حقاً كيف كان بمقدور (البوذا) ألا يعرف الحب؟.. مع هذا المعلم العظيم، فإن الشيء بالنسبة لي هو أعظم أهمية من الكلمات، أفعاله وحياته أكثر أهمية بالنسبة لي من نظرياته، ليس بالكلام أو الفكر أنظر إليه كرجل عظيم، إنما في أعماله وحياته»^(٥٢).

ومرة قال لغوتاما (البوذا): «أيها الكائن النير، ما هو فوق كل شيء هو إعجابي بتعاليمك. كل شيء واضح وصحيح بشكل تام لقد أظهرت العالم كسلسلة كاملة غير مفصومة، مرتبط بعضها ببعض بالعلّة والأثر.. من المؤكد أن قلب أي براهمي سيخفق بسرعة أكبر حين ينظر إلى العالم من خلال تعاليمك مترابطاً تماماً، دون شرح.. إنما حسب تعاليمك، فإن هذه الوحدة والنتيجة المنطقية لجميع الأشياء مفصومة في موضع واحد. خلال منفذ صغير يتدفق إلى عالم الوحدة، شيء غريب، شيء جديد، شيء لم يكن موجوداً من قبل ولا يمكن إظهاره أو تأكيده: ذلك هو مبدؤك في السموّ على العالم، في الخلاص. مع هذا المنفذ الصغير.. من ناحية ثانية فإن القانون المفرد والأبدي للعالم يتهشم ثانية. ساحني إذا ما رفعت هذا الاعتراض»^(٥٣).

ولطالما كان سدهارتا يردد أن الغوتاما، هذا الكائن النير، ذا المعرفة التي لا حدود لها، قد وجد طريقه، من خلال تنفيذ الاكتشاف بنفسه، أما «آلاف الشبان الذين يصغون إلى تعاليمه كل يوم، ويتبعون تعاليمه كل ساعة، فإنها هم جميعاً أوراق ساقطة. إنهم لا يمتلكون الحكمة والدليل

في داخلهم»^(٥٤).

[٨]

وباتجاه معاكس تماماً لإلغاء الذات، عبر سنوات طويلة من الانتماء للسامانيين الزهاد، يرجع سدهارتا إلى الذات لكي يحصنها ضد الدمار، علّ ذلك يمنحه ما كان يرجوه «وسأل نفسه: ما الذي كنت تريد تعلمه من التعاليم والمعلمين؟ ورغم أنهم قد علموك الكثير، ما الذي لم يكن في مقدورهم تعليمك إياه؟ وفكر: إنها الذات، شخصيتها وطبيعتها هما ما أملت تعلمه. أردت أن أخلص نفسي من الذات، أن أقهرها، إنما لم يكن بمقدوري قهرها، لا أستطيع إلا أن أخدعها، لا أستطيع إلا أن أفرّ منها، أن أختبئ منها. في الحق ليس هنالك من شيء في العالم استغرق أفكاري قدر ما استغرقته الذات، هذا اللغز، في أنني أحياناً، في أنني واحد وأنتي منفصل، ومختلف عن أي شخص آخر، في أنني سدهارتا، وليس هنالك من شيء في العالم أعرف عنه أقل مما أعرف عن نفسي، عن سدهارتا.. أجل لن أحاول الفرار من سدهارتا بعد. لن أكرس أفكاري لأحزان العالم بعد. لن أشوه وأحطم نفسي لأجل أن أجسد سرّاً خلف الانقراض. لن أدرس اليوغا والغيدا، أو التنسك، أو أي تعاليم أخرى بعد. سوف أتعلم من نفسي، أكون تلميذ نفسي، سأتعلم منها سرّ سدهارتا»^(٥٥).

ويمضي سدهارتا مندفعاً أكثر فأكثر لكي ينتمي إلى العالم من جديد، ولكي يفسح مجالاً للحس الذي قتلته السامانا وتجاوزته تعاليم البوذا.. لم تكن الذات، والأحاسيس، والعالم تعني شيئاً لسدهارتا يومذاك، كان ينظر إليها بارتياح كحجاب وهمي سريع الزوال أمام ناظره، كشيء ملعون غير جدير بالتأمل لأنه لم يكن واقعياً «لأن الواقع يكمن في الجانب الآخر من المرئي. أما الآن فإن عينيّه تتلصق على هذا

الجانب، إنه يرى ويميز المرئي، إذ صار ينشد مكاناً له في هذا العالم. كان العالم جيلاً عندما يرى هذا الشكل، دون أي قصد، بسيطاً جداً.. ومبهجاً.. القمر والنجوم، الجدول، الشاطئ، الغابة، والصخرة.. لك ذلك وجد قبلاً ولم يكن رآه أبداً، فلم يكن حاضراً. الآن أصبح حاضراً ومتشياً له..» (٥٦).

إن عليه أن يحصل على التجربة بنفسه.. ذلك هو مبدؤه الجديد... ويلتقي عرضاً بكامالا (المحظية) وينغمس معها في المتع الحسية حتى الثمالة: «لقد بدأت أتعلم منك منذ الآن» قال لها: «وستجدينني تلميذاً نابهاً يا كامالا» (٥٧).

ومنداحاً أكثر فأكثر باتجاه الانتهاء للعالم المنظور، يدخل سدهارتا نسيج الحياة الاجتماعية، ويعيش «وسط الناس» ويبارس التجارة بنجاح ملحوظ، وتتكدس الأرباح بين يديه، فيندفع أكثر باتجاه الاستجابة لنداءات الحس والمتعة ويبارس فنوناً من الميسر والجنس والشراب، إلى حد الاستنزاف، أليس هو يريد أن يختبر «التجربة» بنفسه، «لقد تعلمت الكثير وتمتعت بالكثير» (٥٨).

لكنه ما يلبث أن يدرك أن اندفاعه هذا باتجاه الحس، والجنس، والمجتمع، والتكاثر، والعالم المنظور، لم يقده إلى شيء، لم يمنحه ما كان يتوق إليه، وأنه لم يفعل سوى أن سواه بالناس الآخرين، الناس العاديين، أولئك الذين «يعشون بطريقة شبه صيبانية، أو شبه حيوانية، وذلك ما أحبه وازدراه في الوقت نفسه. لقد رآهم يكذبون.. رآهم يعانون ويشيرون لأجل أشياء ما كانت تبدو له جذيرة بذلك..» (٥٩).

وبغته يرى بوضوح «أنه يمضي في حياة غريبة، وأنه يفعل كثيراً من الأشياء التي لم تكن غير لعبة. يحس بأنه مرح تماماً، وفي بعض الأحيان يبارس المتعة، لكن الحياة

الحقيقة تمضي بعيداً عنه دون أن تمسه» (٦٠). لقد عاش سدهارتا ولفترة طويلة حياة الدنيا «دون أن ينتمي إليها. وحواسه التي أماتها خلال سنواته السامانية المتحمسة قد تيقظت ثانية. لقد خبر الثروة. خبر الهيام والقوة، لكنه لوقت طويل بقي ساماناً في أعماقه.. وبشر الدنيا، البشر الاعتياديون ظلوا غريباً بالنسبة له، مثلما كان هو بعيداً عنهم» (٦١)، وهكذا «جعلت الدنيا والعطالة تسربان إلى روح سدهارتا، أشبعتا روحه ببطء، جعلتاها ثقيلة، منهكة قادتها إلى النوم..» (٦٢).

وعندما يلتقي بصديقه غوفيندا، عرضاً، يقول متألماً: «إن عجلة المظاهر تدور بسرعة يا غوفيندا. أين هو سدهارتا البراهمي؟ أين هو سدهارتا السامانا؟ أي هو سدهارتا

التشويق والوحدة والألم؛ كلها تشيع جواً كائياً في الأعمال الإبداعية

الغني؟ إن ما هو زائل يتغير بسرعة وأنت تعرف ذلك» (٦٣).

[٩]

ثم ما تلبث أن تحيي حلقة البحث الأخيرة عن المصير في رواية هيسة عندما يتخلى سدهارتا عن حياته هذه، عن متعه وملذاته وتكاثره بالأشياء.. ويهيم على وجهه كرة أخري علّه يعثر على قناعتة الضائعة وانتهائه المفقود.

في هذه الحلقة يلتقي هيسه بشتاينيك، وسدهارتا بجوزيف، والصخرة السوداء التي تمنح المطر بالنهر الذي يصير معلماً..

هنا يقف الروائيان ببطلتيهما في دائرة الوثنية التي تجعل من الصخور والأنهار آلهة تعطي، ورموزاً يتقرب إليها.. بل يتجاوزان ذلك إلى حالة من الحلول التي تشد الخلاص في الاتحاد مع الظواهر والأشياء، والتلاشي فيها. وإذ تكون هذه الحلقة هي خاتمة الرحلة بالنسبة لبطل هيسه، فإنه سيلتقي بالضرورة مع بطل شتاينيك في المصير، وسيجد جوزيف الأمريكي وسدهارتا الهندي خلاصهما في الوثنية! «نظر بسعادة إلى النهر الجاري. ما اجتذبه نهر بقدر ما يجتذبه هذا النهر بتاتاً. ما وجد على الإطلاق صوت ومظهر الماء الجاري يمثل هذا الجمال. بدا له وكأن النهر قد امتلك شيئاً خاصاً ليخبره به، شيئاً لم يكن يعرفه، شيئاً ما زال ينتظره. إن سدهارتا قد أراد أن يغرق نفسه في هذا النهر، سدهارتا العجوز، المنهك، اليائس، كان سيغرق فيه اليوم. شعر سدهارتا الجديد بأعمق الحب لهذا الماء الجاري وقرر ألا يتركه سريعاً مرة أخرى» (٦٤).

في اللحظة الأخيرة يخلصه النهر من الانتحار، ويعطيه السكينة والرضا، ويمنحه الوجود والتعاليم: «لكم كان شاكرًا له! وفي قلبه سمع الصوت المتيقظ الآن يتكلم، وقد قال له (أحب هذا النهر ابق إلى جانبه، تعلم منه!) أجل، إنه يريد أن يتعلم منه، إنه يريد أن يصغي إليه. بدا له أن كل من يفهم هذا النهر وأسراره سيقدر على فهم الكثير الأكثر، العديد من الأسرار، كل الأسرار..» (٦٥).

ويقول له فاسوديفا صاحب العبارة التي تحتاز النهر صباح مساء: «لقد علمني النهر أن أصغي، وسوف تتعلم منه أيضاً. إن النهر ليعرف كل شيء، وبمقدور الإنسان أن يتعلم كل شيء منه..» (٦٦) ولقد تعلم منه سدهارتا باستمرار «تعلم منه كيف يصغي، بقلب ساكن، بانتظار، بروح منفتحة، بلا ضيق، بلا رغبة، بلا حكم، بلا آراء» (٦٧) ومرة أخرى، حين ارتفع النهر

المنشود: «توقف عن القتال ضد قدره. لقد سطع في وجهه صفاء المعرفة، صفاء من لم يعد محاصراً بتصادم الرغبات، من قد وجد خلاصاً، من هو في انسجام مع جريان الأحداث، مع جريان الحياة، مليئاً بالتعاطف والحنو، مسلماً نفسه إلى الجريان، متميماً إلى وحدة كل الأشياء..» (٧٣).

[١٠]

ما يفرق بين بطلي شتاينيك وهيسه أن أولهما يختار الوثنية في وقت مبكر.. منذ لحظات التشكل الأولى للنص الروائي. أما الآخر فإن اختياره يجيء في خاتمة المطاف، بعد رحلة طويلة من البحث، والمعاناة، وبعد تقلب مرير بين المذاهب والانتماءات. لعل السبب يرجع إلى تسطح الحياة الأمريكية وضحالتها الروحية وفقر خبراتها الدينية، يقابلها ما يبدو عمقاً في الحياة الروحية في الهند.. في العالم القديم عموماً.. تلك الطبقات المتنوعة من التجربة.. ذلك الغنى والخصب في الخبرة، بغض النظر عن قربه أو بعده عن الحق، وعن موازاته للحقيقة أو ارتطامه بها.

وثمة تقابل من نوع آخر، ولكنه يتحرك في الاتجاه نفسه.. إن وثنية جوزيف تتميز بنوع من المباشرة، بينما تتجاوز مباشرتها لدى سدهارتا.. تتكشف عند جوزيف بأكثر مما يجب، بينما تتوارى عند سدهارتا بعض الشيء.

لعلّه في الفضاء الروائي ما يدفع إلى الموقفين.. الزمن والمكان الأمريكي، لا سيما في بدايات التشكل الأولى، في عرض القارة الجديدة، هو غير الزمن والمكان الهندي ذي العمق التاريخي، والخبرات الغنيّة، والتجارب الموصولة التي سبّرت غور الجسد والعقل والروح. ولعل هذا ما يغري «المفكر» و«الفنان» الغربي - أحياناً - بالبحث عن ضالته في الساحة الهندية.. في ركام أديانها وفلسفاتها وخبراتها. إنه وقد فقد بطاقته

كان يحدث وإنها إذ يكونان مصغين للنهر، يفكران معاً بالأفكار ذاتها عن الموت أو الطفولة... وحين يجريهما النهر شيئاً حسناً في اللحظة ذاتها، ينظر كل منهما إلى الآخر كلاهما كان يفكر بالفكرة ذاتها، كلاهما سعيد بالإجابة نفسها عن السؤال نفسه». ولطالما جلس سدهارتا، الساعات الطوال، يصغي إلى النهر لكي يجزبه بالكثير «ويملؤه بالأفكار العظيمة، بأفكار التوحّد» (٧٠).

ومثل جوزيف بطل شتاينيك، فإن سدهارتا يمضي في وثنيته وشركه خطوة أخرى باتجاه التناسخ والحلول والاتحاد، هنالك حيث يصير الإنسان نهرًا، ويغدو هذا إنساناً.. أكثر من ذلك، إنه قد يصبح الرب نفسه... الأبدية ذاتها: «وإذ مضى فاسوديفا في حديثه واعترافه، شعر سدهارتا بتزايد شديد، إن هذا الشيخ لم يعد فاسوديفا بعد، لم يعد رجلاً يصغي إليه، شعر أنه كان يشرب اعترافه مثل شجرة تشرب المطر، إن هذا الرجل كان هو النهر نفسه، إنه كان الرب ذاته، إنه كان الأبدية ذاتها.. إنه الآن أصبح ينظر إلى فاسوديفا كما تنظر الناس إلى الآلهة..» (٧١).

ليس النهر وحده، ولكنها قطعة الحجر التي كان وثنيو العرب - يوماً - يعبدونها ويحملونها معهم في الأسفار: «هذا الحجر هو حجر، إنه حيوان أيضاً، إله وبوذا. إنني لا أحترمه وأحبّه، لأنه قد كان شيئاً وسيصير شيئاً آخر، ولكن لأنه منذ زمن طويل مضى كان كل شيء، فإنه سيبقى دائماً كل شيء بالفعل. إنني لأحبّه لسبب واحد: لأنه حجر، لأنه في هذا اليوم وفي هذه اللحظة يبدو لي حجراً..» (٧٢).

وبعد رحلته الطويلة المعذبة، يلتقي سدهارتا أخيراً بقدره، كما التقى جوزيف من قبل. فهاهنا تحت مظلة الحلول في الطبيعة، والاتحاد مع الظواهر والأشياء، يجد ذاته، ويحظى بأمانه الضائع، وخلصه

عقب الفصل الممطر، وهدر بقوة، قال سدهارتا مخاطباً فاسوديفا: «أليس صحيحاً يا صديقي أن النهر يملك العديد جداً من الأصوات؟ أليس له صوت الملك، صوت المحارب، صوت الثور، صوت الطير الليلي، صوت امرأة حامل، ورجل في حسرة، وآلاف الأصوات الأخرى؟» أوما فاسوديفا: «إن أصوات جميع المخلوقات الحية توجد في صوته» بينما واصل سدهارتا «آية كلمة ينطق حين ينتجج الإنسان في سماع جميع أصواته العشرة آلاف في الوقت نفسه؟» (٦٨).

إننا هنا بإزاء بلوطة جوزيف التي تعد وتعطي.. بإزاء صخرته السوداء التي تنزل المطر.. بإزاء الشجرة والصخرة والنهر، وهي تتحدث بأكثر من صوت، تملك القدرة على الخلق والعطاء.. إنها دائرة الوثنية نفسها، التي نذر القدماء لأهتها النذور، وتقربوا إليها بالقرابين، وسواء كان هذا الذي يتحدث، ويخلق ويعطي، صنماً أم وثناً، سواء كان شجرة أم صخرة أم نهرًا، فالأمر سواء.. إنها محاولة للنزول من فوق، من المستوى العالي الذي أريد للإنسان، بالتوجه إلى الله الواحد الأحد جلّ في علاه، إلى منخفضات التعدّد والشيئية والجهل والخرافة.. وسواء كان الذي يمنح الظواهر الطبيعية والأشياء القدرة على التأله، ويمنحها الفرصة للوعد ولتشكيل المصير.. إنسان في أسفل السلم البشري أم أديب مبدع في القمة، فإن الأمر سواء، والجاهلية هي الجاهلية، ما دامت تمارس أشد أنواع الظلم للحقيقة الكونية بإنكار وحدانية الخالق، بل بإنكار وجوده أحياناً، والنزول إلى تعدديات الأصنام والرموز والأوثان.

وغالباً ما جلسا معاً في المساء: سدهارتا وفاسوديفا، على جذع الشجرة بجانب النهر «وأصغيا معاً بصمت إلى النهر، الذي لم يكن لهما مجرد ماء، إنما صوت الحياة، صوت الكينونة، صوت الصيرورة الأبدية. وأحياناً

الروحانية.. تتخلى عن استناده الديني.. أحس بأنه مقطوع الجذور، وبأنه في أمس الحاجة إلى أن يتجذر في العالم والكون كرة أخرى، **والأ غدت فرصة حياته المتفردة عبثاً لا معنى له ولا طائل وراءه.**

والخبرة الهندية بإنكارها، في حالات كثيرة، للجسد، بقتلها للحس، بإماتتها **للحيرة، تشبه النصرانية المحرقة، وتلتقي معها عبر أكثر من جسر، ولعل هذا ما يمنح الغربيين دافعاً مضافاً إلى الرحيل صوب القارة العتيقة، لكي يعثروا على ضالتهن هناك.** ثم إن التركيز العقلي للفلسفات الهندية يلبسها رداءً خادعاً، ويوهم الغربي الذي يسعى لتجاوز بوار الحياة الغربية وتضخّلها، بأن هذا الإيغال العميق في خفايا العقل والوجدان والروح يمكن أن يمنحه شيئاً ويعده بالمطلوب.

بينما في الطرف الآخر من العالم القديم نفسه، يقف الإسلام، هذا الدين المتفرد، بكل عمقه وامتداده معاً، بكل شموله وتوازنه في الوقت نفسه، بكل استجابته لمطالب الإنسان العقلية والجسدية والروحية والوجدانية والحسية في آن واحد.. وبكل واقعيته التي تعترف وتتعامل مع الإنسان، هذا الكائن الفريد، بجوانبه كافة، دون أن تحكم بالنفي أو التجاهل أو الإعدام، على هذه المساحة أو تلك من تكوينه المعقد المتشابك.

إنه يرفض الأحادية، فيمنح الروح والجسد خبزهما اليومي، ويرفض تدمير الذات.. يطلق العقل لكي يرحل في كل لحظة عبر بوابات الكون، باحثاً منقباً متأملاً.. يعطي ضرورات الحياة الاجتماعية فرصتها كذلك للتحقق. ها هنا حيث يلتقي الروحي بالجسدي، والفردى بالجماعي، والمغيب بالمظهور، والأخروي بالديني، والسماء بالأرض، والمطلق بالمحدود.. ها هنا حيث يصير الانتماء لهذا الدين فرصة للتحقق على كافة المستويات، وفي مختلف الاتجاهات.. فرصة للأمان الذاتي..

والقناعة.. والتشدد.. والتوازن.. والتعالي.. فرصة لتجاوز السكون، والحركة المستمرة على مستويي الذات والعالم من أجل المزيد من تحسين الذات عمقياً ضد عوامل الدمار، والارتفاع بمستوى الحياة البشرية على سطح العالم أفقياً.. ها هنا حيث يصير بمقدور كل الضائع أن يجدوا أنفسهم من أي باب يختارونه إلى ساحة الإسلام: العقل أو الروح أو الحس أو الوجدان.. فالنتيجة واحدة: مزيداً من التحقق للإنسانية الإنسان.

لعلّه الجهل بهذا الدين.. لعله العداء والكراهية.. لعله الإرث الثقافي والنفسي.. ما يجعل شتاينيك وهيسه، وعشرات، بل مئات غيرهم من الأدباء والفنانين والفلاسفة والمفكرين، يبحثون عن مصائر لأبطالهم في كل خبرة، وفي مدى أية ساحة إلا في ساحة هذا الدين ونخبته التي تعلق - بتألق توحيدها المطلق ومعمارها المتناسق المقنع - على سائر الخبرات.

الهوامش

- (١) ترجمة عمر ديراوي، الطبعة الثانية، مؤسسة المعارف، بيروت - ١٩٧٣ م.
- (٢) ترجمة سمير علي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد - ١٩٨١ م.
- (٣) البحث عن إله مجهول ص ١٤.
- (٤) نفسه ص ١٧.
- (٥) نفسه ص ٣١.
- (٦) نفسه ص ٣١.
- (٧) نفسه ص ٣٩ وانظر الصفحات ٨٩، ٢٠٣، ٢١٣.
- (٨) نفسه ص ٥١، ٥٣.
- (٩) نفسه ص ٦٥.
- (١٠) نفسه ص ١٠٨، ١١٠، ١١١.
- (١١) نفسه ص ٣٠.
- (١٢) نفسه ص ٣١.
- (١٣) نفسه ص ١١٨.
- (١٤) نفسه ص ١٣٧.
- (١٥) نفسه ص ١٣٠.
- (١٦) نفسه ص ١٣٧.
- (١٧) نفسه ص ١٣٧-١٣٨.
- (١٨) نفسه ص ١٤٦.
- (١٩) نفسه ص ١٤٧.
- (٢٠) نفسه ص ١٥٦-١٥٨.

- (٢١) نفسه ص ١٦٣-١٦٤.
- (٢٢) نفسه ص ١٦٦.
- (٢٣) نفسه ص ١٧٠-١٧١.
- (٢٤) نفسه ص ١٧٨.
- (٢٥) نفسه ص ٢٠٦.
- (٢٦) نفسه ص ٢١٣.
- (٢٧) نفسه ص ٢١٨-٢١٩.
- (٢٨) نفسه ص ٢٢٠.
- (٢٩) نفسه ص ٢٤٠.
- (٣٠) نفسه ص ٢٤٠-٢٤١.
- (٣١) نفسه ص ٢٤٢.
- (٣٢) نفسه ص ٢٤٢.
- (٣٣) نفسه ص ٢٩.
- (٣٤) نفسه ص ٦٣.
- (٣٥) نفسه ص ٧٨.
- (٣٦) نفسه ص ١٢٨.
- (٣٧) نفسه ص ١٢٩.
- (٣٨) نفسه ص ٢٢٧.
- (٣٩) نفسه ص ٢٢٩.
- (٤٠) نفسه ص ٢٣٢-٢٣٣.
- (٤١) نفسه ص ٢٣٣.
- (٤٢) هيرمان هسه: سدهارتا ص ١٥.
- (٤٣) نفسه ص ١٦-١٧.
- (٤٤) نفسه ص ١٧-١٩.
- (٤٥) نفسه ص ١٩.
- (٤٦) نفسه ص ١٩-٢٠.
- (٤٧) نفسه ص ٢١.
- (٤٨) نفسه ص ٢٢.
- (٤٩) نفسه ص ٢٨.
- (٥٠) نفسه ص ٣١.
- (٥١) نفسه ص ١١٦.
- (٥٢) نفسه ص ١٢٠.
- (٥٣) نفسه ص ٣١-٣٢.
- (٥٤) نفسه ص ٦٢.
- (٥٥) نفسه ص ٣٦-٣٧.
- (٥٦) نفسه ص ٤٠-٤١.
- (٥٧) نفسه ص ٤٧.
- (٥٨) نفسه ص ٥٩.
- (٥٩) نفسه ص ٦٠.
- (٦٠) نفسه ص ٦١.
- (٦١) نفسه ص ٦٣.
- (٦٢) نفسه ص ٦٤.
- (٦٣) نفسه ص ٧٨.
- (٦٤) نفسه ص ٨٣.
- (٦٥) نفسه ص ٨٤.
- (٦٦) نفسه ص ٨٨.
- (٦٧) نفسه ص ٨٩.
- (٦٨) نفسه ص ٩٠.
- (٦٩) نفسه ص ٩٠-٩١.
- (٧٠) نفسه ص ٩٦.
- (٧١) نفسه ص ١٠٩-١١٠.
- (٧٢) نفسه ص ١١٨.
- (٧٣) نفسه ص ١١٢.